

القسم الرابع فى العلم والدين ومستقبل الإسلام والمسلمين

الجمود علة تزول

المقال الخامس لذلك الإمام الحكيم وفيه بيان علاج الداء

تفصيل مضرات هذا الجمود وسيئاته يحتاج إلى كتاب طويل فنكتفى بما أوجزناه فى الصفحات السابقة. ولكن يبقى الكلام فى أنه عارض يمكن زواله إن شاء الله تعالى.

قد عرفت من طبيعة الدين الإسلامى بعد عرضها عليك فيما سبق أنها تسمو عن أن ينسب إليها هذا المرض الخبيث - مرض الجمود على الموجود - وكفى فى الكتاب من آية تُنفّر من اتباع الآباء مهما عظم أمرهم بدون استعمال العقل فيما كانوا عليه ولا حاجة إلى إعادة ذلك. ثم إننا أشرنا أيضاً إلى بعض الأسباب التى جلبت هذا الجمود على المسلمين لا على الإسلام، وأن محدثها إما عدو للمسلمين طالب لخفض شأنهم أو لاستعبادهم ولاستغلال أيديهم لخاصة نفسه. وإما محب جاهل يظن

خيراً ويعمل شراً وهذا الثاني كان أشد نكابة، وأعون على الغواية، وهل تزول هذه العلة ويرجع الإسلام إلى سعته الأولى وكرمه الفياض وينهض بأهله إلى ما دُخر لهم فيه؟

جاء في الكتاب المبين ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ سورة الحجر آية ٩، ذلك الذكر هو الذكر الحكيم وهو القرآن الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير. وهو كما قال: ﴿ كَتَبْتُ فَصَّلَاتِ بَابِهِ، قَرَأَ أَنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ سورة فصلت آية ٣، وعد الله بحفظ هذا الكتاب وقد أنجز وعده فلم تطل إليه يد عدو مقاتل ولا يد محب فبقي كما نزل، ولا يضره عمل الفريقين في تفسيره وتأويله، فذلك مما لا يلتصق به فهو لا يزال بين ذفات المصاحف طاهراً نقيّاً بريئاً من الاختلاف والاضطراب. وهو إمام المتقين، ومستودع الدين. وإليه المرجع إذا اشتد الأمر وعظم الخطب وسئمت النفوس من التخبط في الضلالات. ولا يزال لأشعة نوره نفوذ من تلك الحجب التي أقاموها دونه ولا بد أن تتمزق كلها بأيدي أنصاره فيتبجج ضياؤه لأعين أوليائه إن شاء الله تعالى. هذا الضياء كان ولا يزال يلوح لأمعه في حنادس الظلم لأفراد اختصهم الله بسلامة البصيرة فيهتدون به إليه ويحمدون سراهم. بما عرفوا من نجاح مسعاهم. ولكن الذين أطبقت عليهم ظلم البدع، وران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للشيعة. وطمست بصائرهم. وفسدت عقولهم، بما حشوها من الأباطيل، وبما عطلوها عن النظر في الدليل. هؤلاء في عمى عن نوره وقلوبهم في أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر. يصيحون بأنهم عُمى صم فلا يرون له سناء، ولا يسمعون له نداء، ويعدون ذلك من كمال

الإيمان به ولبئس ما رضوا لأنفسهم من السفه وطيش الحلم وهم يعلمون. هذا حال الجمهور الأعظم ممن يوصفون بأنهم مسلمون ويجلبون العار على الإسلام بدخولهم تحت عنوانه ، ويقوُّون حجج أعدائه في حربه بزعمهم الاجتماع تحت لوائه . وما هم منه في شيء كما قدمنا.

هؤلاء لا بد أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم فقد اتبعوا سنتهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع وضيقوا على أنفسهم بدخولهم في جحر الضب الذي دخلوه^(١) ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم فلن يخلص مما قضى الله في عذابهم . فقد قص عليهم سير الأولين وبَيَّن لهم ما نزل بهم عندما انحرفوا عن سننه وحادوا عن شرعه ونَبَذوا كتابه وراءهم ظَهرياً . أَحَلَّ بهم الذلَّ . وَضَرَبَ عليهم السكَّنةَ ، وَأَوْرَثَ غَيْرَهُمْ أَرْضَهُمْ وديارهم . فهل ينتظر المتبعون سنتهم . السائرُونَ على أثرهم أن يصنع الله بهم غير الذي صنع بسابقيهم وقد قضى بأن تلك سنته ولن تجد لسنَّته تَبْدِيلاً .

لا تزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين إلى الإسلام . ولا تزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا (وقد بدأوا يفيقون من سكراتهم) ويفزعوا إلى طلب النجاة ويغسلوا قَذَى المَحَدَّثَاتِ عن بصائرهم . وعند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم في انتظارهم يُعَدُّ لَهُمْ وسائل الخلاص ويؤيدهم في سبيله بروح القدس ويسير بهم إلى منابع العلم . فيعترفون منها ما يشاءون فيعرفون أنفسهم ويشهدون ما كان قد كمن فيها من قوة فيأخذ بعضهم بيد بعض ويسيروا إلى المجد غير ناكِلين ولا مخذولين . ولهذا أقول :

(١) النار : في الكلام إشارة إلى حديث : (لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) الحديث رواه الشيخان وغيرهما .

إن الإسلام لن يقف عثرة في سبيل المدنية أبداً ولكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها، وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله. وهذا الجمود سيزول وأقوى دليل على زواله بقاء الكتاب شاهداً عليه بسوء حاله ولطف الله بتقييض أناس للكتاب ينصرونه، ويدعون إليه ويؤيدونه، والحوادث تساعدهم، وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم، هذا الكتاب المجيد الذي كان يتبعه العلم حيثما سار شرقاً وغرباً لا بد أن يعود نوره إلى الظهور ويمزق حجب هذه الضلالات، ويرجع إلى موطنه الأول من قلوب المسلمين ويأوى إليها. العلم يتبعه وهو خليفه الذي لا يأنس إلا إليه ولا يعتمد إلا عليه.

يقول أولئك الجامدون الخامدون كما يقول بعض أعداء القرآن: إن الزمان قد أقبل على آخره، وإن الساعة أوشكت أن تقوم، وإن ما وقع فيه الناس من الفساد، وما بُني به الدين من الكساد، وما عرض عليه من العلل، وما نراه فيه من الخلل، إنما هو أعراض الشيخوخة والهرم، فلا فائدة في السعي ولا ثمرة للعمل. فلا حركة إلا إلى العدم، ولا يصح أن يمتد بصرنا إلى العدم، ولا أن ننتظر من غاية لأعمالنا سوى العدم (نعوذ بالله)، هؤلاء حَفدة الجهل وأعوان اليأس يهرفون بما لا يعرفون. ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا أنه كاد ينقطع عند نهايته؟ إن الذي مضى بيننا وبين مبدأ الإسلام ألف وثلاثمائة وعشرون عاماً، وإنما هي يوم وبعض يوم أو بعض يوم فقط من أيام الله تعالى. وإن آيات الله في الكون - وإن كانت تدل على أن ما مضى على الخليقة يقدر بالدهور الدهاير، - تشهد بأن ما بقى لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره

كل تقدير ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ سورة النساء آية ٧٨. إن ما بيننا وبين مبدأ الإسلام لا يزيد عن عمر ستة وعشرين رجلاً كل رجل يعيش خمسين سنة. فهل يعد مثل ذلك دهرًا طويلًا بالنسبة إلى دين عام كدين الإسلام؟ إن زمنًا كهذا لا يكفي - وقد تبين أنه لم يكف - لاهتداء الناس كافة بهديه. ولم تقوم القيامة على الدين ولم تقم على شرمهم وطمعهم؟

قد وعد الله بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله فسار في سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعوامًا، ثم انحرف به أهله عن سبيله وصاروا به إلى ما يرون ونرى. ولن ينقضى العالم حتى يتم ذلك الوعد وبأخذ الدين بيد العلم ويتعاونوا معًا على تقويم العقل والوجدان فيدرك العقل مبلغ قوته. ويعرف حدود سلطنته، فيتصرف فيما آتاه الله تصرف الراشدين. ويكشف ما مكنه فيه من أسرار العاملين، حتى إذا غشيته سباحات الجلال وقف خاشعًا، وقفل راجعًا، وأخذ أخذ الراسخين في العلم الذين قال فيهم أمير المؤمنين على بن أبي طالب (كرم الله وجهه) فيما روى عنه: (هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب. الإقرار بجملته ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب. فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علمًا. وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخًا واعتبر بعد ذلك بقوله: (فاقتصروا على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين. هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع^(١) قدرته، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسواس أن يقع عليه في عميقات

(١) المنقطع: ما ينقطع عند الشيء وهو آخره.

غيوب ملكوته ، وتولعت^(١) القلوب إليه لتجرى فى كيفية صفاته ، وغمضت مداخل العقول فى حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ، ردعها وهى تحوب مهاوى سدف^(٢) الغيوب متخلصة إليه سبحانه ، فرجعت إذ جبهت^(٣) معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته ، ولا تخطر ببال أولى الرؤيات خاطرة من تقدير جلال عزته).

هنالك يلتقى (أى العقل) مع الوجدان الصادق (القلب) ولم يكن الوجدان ليدابر العقل فى سيره داخل حدود مملكته متى كان الوجدان سليماً . وكان ما استضاء به من نبراس الدين صحيحاً . إياك أن تعتقد ما يعتقده بعض السذج من أن فرقاً بين العقل والوجدان (القلب) فى الوجهة بقتضى الفطرة والغريزة . فإنما يقع التخالف بينهما عرضاً عند عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس . وقد أجمع العقلاء على أن المشاهدات بالحس الباطنى (الوجدان أو القلب) من مبادئ البرهان العقلى كوجدانك أنك موجود ووجدانك لسرورك وحزنك وغضبك ولذتك وألمك ونحو ذلك . منحنا العقل للنظر فى الغايات والأسباب المسببات ، والفرق بين البسائط والمركبات ، والوجدان لإدراك ما يحدث فى النفس والذات من لذائذ وآلام . وهلع واطمئنان ، وشماس وإذعان ، ونحو ذلك مما يذوقه الإنسان ولا يحصيه البيان ، فهما عينان للنفس تنظر بهما - عين تقع على القريب وأخرى تمتد إلى البعيد ، وهى فى حاجة إلى كل منهما ولا تنتفع بإحدهما حتى يتم لها الانتفاع بالأخرى . فالعلم الصحيح مقوم

(١) تولعت : اشتد عشقها ..

(٢) السدف : جمع سدفة كظلمة لفظاً ومعنى .

(٣) جبه : ضربت جبهته ورّد .

الوجدان. والوجدان السليم من أشد أعوان العلم، والدين الكامل علم وذوق، عقل وقلب، برهان وإذعان، فكر ووجدان، فإذا اقتصر دين على أحد الأمرين فقد سقطت إحدى قائمتيه وهيئات أن يقوم على الأخرى. ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الإنسان الواحد إنسانيين، والوجود الفرد وجودين.

قد يدرك عقلك الضرر في عمل ولكنك تعمله طوعاً لوجدانك. وربما أيقنت المنفعة في أمر وأعرضت عنه إجابة لدافع من سريرتك. فتقول: إن هذا يدل على تخالف العقل والوجدان. ولكني أقول: إن هذه حجة من لا يعرف نفسه ولا غيره. عليك أن ترجع إلى نفسك فتتحقق من أحد الأمرين - إما أن يقيئك ليس بيقين وأنه صورة عرضت عليك من قول غيرك فأنت تظنها علماً وما هي به. وإما أن وجدانك وهم تمكن فيك، وعادة رسخت في مكان القوة منك، وليس بالوجدان الصحيح وإنما هو عادة ورثتها عن حولك وظنتها شعوراً منبئاً الغريزة وما هي منه في شيء.

نتيجة:

لا بد أن ينتهي أمر العالم إلى تأخي العلم والدين، على سنة القرآن والذكر الحكيم، ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذي صح معناه^(١)

(١) المنار - قال العراقي: رواه أبو نعيم في الحلية بالرفع منه بإسناد ضعيف ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه، ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال: هذا إسناد فيه نظر. قلت فيه الوازع بن نافع متروك وقال الزبيدي في شرح الإحياء: قلت حديث ابن عمر لفظه (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله) هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكير وأبو الشيخ في العظمة والطبراني في الأوسط وابن عدي وابن مردويه والبيهقي وضعفه والأصبهاني وأبو نصر في الإبانة وقال غريب ورواه أبو الشيخ من حديث ابن عباس: (تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق=

(تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله) وعندها يكون الله قد
 أتم نوره ولو كره الكافرون^(١) وتبعهم الجامدون القانطون ، وليس بينك
 وبين ما أعدك به إلا الزمان الذى لا بد منه فى تنبيه الغافل وتعليم
 الجاهل وتوضيح المنهج ، وتقويم الأعوج ، وهو ما تقتضيه السنة الإلهية
 فى التدريب ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَلَ سُنَّةَ اللَّهِ
 تَبْدِيلًا﴾ سورة الأحزاب آية ٦٢ . ﴿إِنَّهُمْ بَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَرَوْنَهُ قَرِيبًا﴾ سورة
 المعارج آية ٦-٧ . ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ سورة
 محمد آية ٧ .. وهو خير الناصرين .



=فإنكم لا تقدرون قدره) ورواه ابن النجار والرافعى من حديث أبى هريرة (تفكروا فى خلق
 الله ولا تفكروا فى الله) إلخ وتعدد هذه الروايات واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح كما
 قال الحافظ السخاوى فى المقاصد .
 (١) الكافر : من يرى الدليل فيصد عنه ولا ينظر فيه أو ينظر فيعرف الحق ثم يمارى فيه
 وينكره عناداً هـ من هامش الأصل .

حرية العلم فى أوروبا الآن ونسبتها إلى الماضى والحاضر فى الإسلام

وهو المقال السادس لذلك الإمام الحكيم

لم يبق علينا من الكلام إلا ما يتعلق بالأمر الرابع مما ذكرته الجامعة^(١) وهو (أن تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحى فى أوروبا، وعدم تمكنهما من التغلب على الاضطهاد الإسلامى دليل واقعى على أن النصرانية كانت أكثر تسامحاً مع الفلسفة).

ليس من السهل على أن أعتقد أن أديباً كصاحب الجامعة يقول هذا القول وهو ناظر إلى الحقيقة بكلتا عينيه مع معرفته بلسان الغربيين وإطلاعه على ما كتبوا فى هذه المسألة وهى من أهم المسائل التاريخية. وإنما هى عين الرضا تناولت من حاضر الحال ومما انتهى إليه سير التاريخ ما تناولت ثم أملت على قلبه ما جرى به قلمه.

هل يصح أن تُسمَّى الاستكانة للغالب تسامحاً؟ وهل يُسمَّى العجز مع التطلع للنزاع عند القدرة حلماً، أم يُسمَّى غلّ الأبدى عن الشر بوسائل القهر كرمافاً؟ هل تعد مساكنة جناب البابا لملك إيطاليا فى مدينة واحدة

(١) يذكر القراء أن كلام الجامعة بالظن فى الإسلام كان مبنيّاً على أربعة أمور تقدم الرد على ثلاثة منها وفى هذا المقال الرد على الرابع.

واجتماع الكرسيين العظميين كرسى المملكة الإيطالية والمملكة البابوية في عاصمة واحدة تسامحاً من قداسة البابا مع الملك؟ أليس الأجدر بالمنصف أن يسمى ذلك تسامحاً من الملك مع البابا، لأنه صاحب القوة والجيش والسلطنة، ويمكنه أن يسلب البابا تلك الثمالة التي بقيت له من السلطة الملكية؟ كما أن الأليق به أن يسمى تلك الحالة التي عليها أهل أوروبا اليوم من طمأنينة العلم بينهم بجانب الدين تساهلاً من العلم مع الدين لا تسامحاً من الدين مع العلم بعد ما كان بينهما من الحوادث ما كان وبعد غلبة العلم واستيلائه على عرش السلطان في جميع الممالك ورضاء الدين بأن يكون تابعاً له في أغلبها.

اقتباس مدنية أوروبا من الإسلام.. وأسباب ظهورها التام

السبب الأول الجمعيات:

كان جلال بين العلم والدين في أوروبا وتألفت لفصرة العلم جمعيات وأحزاب منها ما اتخذ السرَّ حجاباً له حتى يقوى ومنها ما ابتدأ بالمجاهرة. وكان الدين يظفر بالعلم كما سبق بيانه لكثرة أعوانه وضعف أعوان العلم حتى أشرفت الآداب المحمدية على تلك البلاد من سماء الأندلس وتبع إشراق تلك الآداب واشتغال الناس بها سطوع نور العلم العربي من الجانب الشرقى كما ذكرنا. وقد وجد هذان النوران استعداداً

من النفوس للاستضاءة بهما فى السبيل التى تؤدى بهما إلى المدنية التى كانا يحملانها. هذا الاستعداد كسبته الأنفس بما ضايقها من غلو رؤساء الدين فى استعمال سلطانهم واشتدادهم فى استعباد العقل والوجدان حتى ضاق ذرع الفطرة عن الاحتمال. فأخذ الشعور الإنسانى يتلمس السبيل إلى الخلاص وإذ لاح له هذان النوران اتخذها له هداية واستقبلهما بوجهه. وكان بعد ذلك ما كان من تأثر الدين لأهل العلم وإحراقهم بالنيران، ونفيهم من الأوطان. ومقاومة رؤساء الدين للحكومات ولأهل الأفكار المستقلة فى أدنى الأشياء وأعلاها حتى إنه عندما شرع ملوك فرنسا فى فرش شوارع باريس بالبلاط على الأسلوب الذى وجدوه فى مدينة قرطبة. وصدر الأمر بمنع تربية الخنازير فى تلك الشوارع أغضب ذلك قسوس القديس أنطوان ونادوا بأن خنازير القديس لا بد أن تمر فى الشوارع على حريتها الأولى. وحصل لذلك شغب عظيم اضطر الحكومة أن تسمح بذلك مع صدور الأمر بأن توضع فى أعناقها أجراس. وقالوا إن الملك فيليب السمين مات بسقطة عن فرسه عندما انزعج الفرس من منظر خنزير وصلصلة الجرس فى عنقه.

لقائل أن يقول: إن القسوس فى ذلك الزمان كان يمكنهم أن يمتنعوا من وضع الأجراس فى أعناق الخنازير. فراضاهم بذلك يعد تسامحاً عظيماً مع العلم (أو الصناعة) ويسهل على أن أوافقه على أن مثل هذا الضرب من التسامح فى أجراس الخنازير كان يظهر من حين إلى حين إلا أنه فيما أظن لا يكفى فى تشييد هذه المدنية التى يفخر بها الأوروبيون اليوم ونحن لا نبخسها قدرها كذلك.

السبب الثانى الضغط الدينى:

شدة الحاجة وغلو الرؤساء كانا يوقدان الغيرة فى قلوب طلاب العلوم فلم تفتقر لهم همة فعظم أمرهم واكتشفوا كثيراً من الحقائق التى نفعت العامة، وتنبهت العقول للأخذ بما يهدون عليه وصارت الحرب بينهم وبين رؤساء الدين سجلاً إلى أن ظهر دعاة الإصلاح الدينى (البروتستانت) فانضم دعاة العلم إليهم طناً منهم أن سيكونون معهم من المجاهدين فى سبيل العلم. وكان منهم إيراسم الشهير فلما انتصر طلاب الإصلاح ودالت لهم دولة استعروا يعاقبون بالموت على الأفكار التى تخالف ظاهر ما يعتقدون كما تقدم. فانفصل إيراسم ومن معه من حماة الحرية واستقلال الإرادة الشخصية. وترك المصلحين يتفرقون شيئاً ويقتل بعضهم بعضاً وقال: ما كنت أظن أن دعاة الإصلاح يكونون كذلك أعداء العلم.

هذه الطوائف التى تفرقت عقائدها فى الإصلاح لم تنتظر إلا أن تأمن عدوها العام وهو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فلما أمنتها أخذ بعضها يصول على بعض واشتعلت نيران الحروب بينهم. قال أحد أفاضل مؤرخيهم: (وكلما ارتفعت طائفة منهم إلى عرش القوة لوثت يديها بالجرائم فى العمل لإفناء البقية حتى سئمت النفوس دوام تلك الحال. ووجدت من توالى حوادث الانتقام وظهور مضارّة فى كل طائفة أن الأفضل لكل طائفة أن تمنح الأخرى من الحرية ما لا تستغنى عنه واحدة منها. والعلم كان يعمل عمله فى كشف الحقائق وترقية الآداب وكان من أقوى المنبهات إلى مضار الحروب ومفاسد العدوان على حرية الأشخاص من أى طائفة كانت. من هذا نشأ ذلك الأصل العظيم أصل

التسامح والرضى بمجاورة المخالف فى رأى. نشأ من القهر والقسوة التى كانت كل طائفة تعامل بها الأخرى) انتهى كلام المؤرخ بالمعنى.

السبب الثالث الثورة:

ولا حاجة بى إلى ذكر ما جاءت به الثورة الفرنسية وكيف كانت قيامتها على الدين ورؤسائه مما هو معلوم. وإنما أنبه القارئ إلى الاعتبار بما تقدم من القول. وبما يمكنه أن يقف عليه فى كتب القوم، ليعلم أن الدين المسيحى فى أوروبا لم يحتمل العلم فضلاً وكرماً وإنما قويت عليه أحزاب العلم فساموه استكانة وخضوعاً. ولو شاء أن لا يحتمل لم يستطع إلى ذلك سبيلاً.

السبب الرابع ترك المسيحية:

رؤساء الدين المسيحى رجال ذوو عزيمة وإقدام قلما يدانيهم فيها رؤساء دين من الأديان. وهم مع غلوهم فى الدين واشتدادهم فى استعمال سلطانهم على النفوس كانوا ولا يزالون يتخذون كل وسيلة لتأييد دينهم. وهم أشد الناس حرصاً على تقويم أركانه ودفع الشبه عنه ولم يزدهم العلم الجديد إلا وسائل وسبلاً لترويج عقائده وآدابه، ولم تغتر لهم همّة فى نشره وتزيينه للقلوب. ومع ذلك كله نرى أن رجال العلم وحماة المدنية يتسللون منه. والعامة من الشعوب فى تخاذل عنه. والأمة الفرنسية التى كانت تدعى بنت الكنيسة أصبحت من أشد الناس عليه، ورأت فلسفتها أن تحدّد حرية أهل الدين فى تعاليمهم واجتماعهم. كل ذلك ومدارس اللاهوت لا تزال عامرة وطلاب اللاهوت يعدّون بالألوف. كل ذلك وكثير من الدول ترى من مزاياها حماية الدين

المسيحي في أقطار الأرض. قال أحد رؤساء البروتستانت في خطبة من خطبه التي ألقاها في بعض البلاد الفرنسية سنة ١٩٠١ بعد كلام له في أن المسيحية رومانية أو بروتستانية فقدت خاصتها الدينية كما فقدت فائدتها الاجتماعية ما نصه مترجماً: "إذا كان الدين المسيحي ليس شيئاً سوى الكتلكة المحتاجة إلى الإصلاح (المذهب الروماني) أو الكتلكة التي دخلها الإصلاح بالفعل (المذهب البروتستانتي) فالقرن الموفى للعشرين (القرن الحاضر) لا يكون مسيحياً أبداً".

وقد جاء في كلام هذا الخطيب بأنه يريد أن يطلب للمسيحية معنى آخر ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المسلمين فيها. فإن وفق للنجاح في سعيه زال الخلاف - إن شاء الله - بين الدين والعلم. بل بين المسيحية والإسلام.



عَوْدٌ إِلَى سَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ

أخذ بيد القارئ الآن. وأرجع به إلى ما مضى من الزمان. وأقف به وقفة بين يدى خلفاء بنى أمية والأئمة من بنى العباس ووزرائهم والفقهاء والمتكلمين والمحدثين والأئمة المجتهدين من حولهم. والأدباء والمؤرخين والأطباء والفلكيين والرياضيين والجغرافيين والطبيين وسائر أهل النظر من كل قبيل بطيفون بهم. وكل مقبل على عمله فإذا فرغ عامل من العمل أقبل على أخيه ووضع يده في يده يصافح الفقيه المتكلم

والمحدث الطبيب والمجتهد الرياضي والحكيم . وكلُّ يرى في صاحبه عونًا على ما يشتغل هو به . وهكذا أدخل به بيتًا من بيوت العلم فأجد جميع هؤلاء سواء في ذلك البيت يتحادثون ويتباحثون ، والإمام البخارى حافظ السنة بين يدى عمران بن حطان الخارجى يأخذ عنه الحديث وعمر بن عبيد رئيس المعتزلة بين يدى الحسن البصرى شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل : (لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته وكأن الأنبياء ربه إن قام بأمر قعد به . وإن قعد بأمر قام به . وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له . ما رأيت ظاهرًا أشبه بباطن منه ولا باطنًا أشبه بظاهر منه بل أرفع بصرى فأجد الإمام أبا حنيفة أمام الإمام زيد بن على (صاحب مذهب الزيدية من الشيعة) يتعلم منه أصول العقائد والفقه ولا يجد أحدهم من الآخر إلا ما يجد صاحب رأى فى حادثة ممن ينازعه فيه اجتهدًا فى بيان المصلحة وهما من أهل بيت واحد أمرُ به بين تلك الصفوف التى كانت تختلف وجهتها فى الطلب وغايتها واحدة وهى العلم وعقيدة كل واحد منهم أن فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة كما ورد فى بعض الأحاديث^(١) .

الخلفاء أئمة فى الدين مجتهدون وبأيديهم القوة وتحت أمرهم الجيش . والفقهاء والمحدثون والمتكلمون والأئمة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل

(١) النار : رواد أبو الشيخ ابن حبان فى العظمة عن أبى هريرة بسند ضعيف ورواه من طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات ولكن له روايات أخرى منها رواية الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس بلفظ (ثمانين سنة) وفى رواية موقوفة على ابن عباس (خير من قيام ليلة) ولشبهة هذا المعنى قال الغزالي : وردت السنة بكذا .

الدين ومن جند الخلفاء. الدين فى قوته . والعقيدة فى أوج سلطانتها .
وسائر العلماء ممن ذكرنا بعدهم يتمتعون فى أكنافهم بالخير والسعادة
ورفه العيش وحرية الفكر لا فرق فى ذلك بين من كان من دينهم ومن
كان من دين آخر، فهناك يشير القارئ النصف إلى أولئك المسلمين،
وأنصار ذلك الدين. ويقول: ههنا يطلق اسم التسامح مع العلم فى
حقيقته. ههنا يوصف الدين بالكرم والحلم، ههنا يعرف كيف يتفق
الدين مع المدنية، عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية فى
النظر، ومنهم تهبط روح المسألة بين العقل والوجدان (أو بين العقل
والقلب) كما يقولون.

يرى القارئ أنه لم يكن جلا د بين العلم والدين وإنما بين أهل العلم
أو بين أهل الدين شيء من التخالف فى الآراء شأن الأحرار فى الأفكار
الذين أطلقوا من غل التقييد. وعوفوا من علة التقليد. ولم يكن يجرى
فيما بينهم اللمز بالألقاب فلا يقول أحد منهم لآخر: إنه زنديق أو كافر
أو مبتدع أو ما يشبه ذلك. ولا تتناول أحدًا منهم يد بأذى إلا إذا خرج
عن نظام الجماعة وطلب الإخلال بأمن العامة فكان كالعضو المجذم
فيقطع ليذهب ضرره عن البدن كله.



ملازمة العلم للدين وعدوى التعصب فى المسلمين

متى ولع المسلمون بالتكفير والتفسيق. ورُمى زيد بأنه مبتدع وعمرو
بأنه زنديق؟ أشرنا فيما سبق إلى مبدأ هذا المرض ونقول الآن: إن ذلك

بدأ فيهم عندما بدأ الضعف في الدين يظهر بينهم . وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله (تلك الفتن التي كان يثيرها أعداء الدين في الشرق وفي الغرب لخفض سلطانه . وتوهين أركانه . وتصدّر للقول في الدين برأيه من لم تختزج روحه بروح الدين . وأخذ المسلمون يظنون أن من البدع في الدين ما يحسن إحداثه لتعظيم شأنه تقليدًا لمن كان بين أيديهم من الأم المسيحية وغيرها . وأنشأوا ينسون ماضى الدين ومقالات سلفهم فيه ويكتفون برأى من يرونه من المتصدين المتعالمين . وتولى شئون المسلمين جهالهم . وقام بإرشادهم في الأغلب ضالّهم . فى أثناء ذلك حدث الغلوّ فى الدين واستمرت تيران العداوات بين النظّار فيه . وسهل على كل منهم لجهله بدينه أن يرمى الآخر بالمروق منه لأدنى سبب . وكلما ازدادوا جهلاً بدينهم ازدادوا غلوّاً فيه بالباطل ودخل العلم والفكر والنظر (وهى لوازم الدين الإسلامى) فى جملة ما كرهوه . وانقلب عندهم ما كان واجباً من الدين محظوراً فيه .

لا أكاد أخطئ القارئ إذا زعم أن المسلم إنما استفاد اسم زندقة وتزندق ومتزندق وزنديق من فضل ما علّمه جيرانه إذ كانوا يقولون : هرتقة وتهترق وهو هرتوقى أو ما يماثل ذلك . أو زعم أن قد فشّت فى المسلمين سرعة التكفير بطريق العدوى من أهل الملل المتشدّدة وأن الذى سهّل سريان العدوى بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الدينى عند المسلمين بجهلهم بأصوله وفقوماته ومتى ضعف المزاج استعد لقبول المرض كما هو معلوم .

إن المسلمين لما كانوا علماء فى دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم . أصيبوا بمرض الجهل بدينهم فانهزموا من الوجود وأصبحوا أكلة الآكل

وطُعمة الطاعم، هل وقف الجهل بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم فى مسائل الدين أو يذهب مذهب الفلاسفة أو ما يقرب من ذلك؟ لا. بل عدا بهم الجهل على أئمة الدين وخَدَمَةِ السنة والكتاب. فقد حُمِلت كتب الإمام الغزالى إلى غرناطة وبعدها انتفع بها المسلمون أزمانًا هاج الجهل بأهل تلك المدينة. وانطلقت ألسنة المتعالين من البربر بتفسيره وتضليله فجمعت تلك الكتب خصوصًا نسخَ (إحياء علوم الدين) ووضعت فى الشارع العام فى المدينة وأحرقت. قال قوم يعدون أنفسهم مسلمين فى ابنِ تيمية - وهو أعلم الناس بالسنة وأشدّهم غيرة على الدين - : إنه ضال مضل. وجاء على أثر هؤلاء مقلدون يملأون أفواههم بهذه الشتائم. وعليهم إثمها وإثم من يقفون بها إلى يوم القيامة.



إهمال آثار السلف وحال علوم الدين وطلابها

أهمل المسلمون علوم دينهم والنظر فى أقوال سلفهم حتى إنك لا تجد اليوم فى أيديهم كتابًا من كتب أبى الحسن الأشعرى ولا أبى منصور الماترىدى. ولا تكاد ترى مؤلفًا من مؤلفات أبى بكر الباقلانى أو أبى إسحاق الإسفراينى. وإذا بحثت عن كتب هؤلاء الأئمة فى مكاتب المسلمين أعيالك البحث ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب. كُتبت على القرآن تفاسير كثيرة فى القرن الثالث من الهجرة وما بعده إلى السادس منها تفسير الطبرى وتفسير أبى مسلم الأصفهانى

وتفسير القرطبي وتفسير الجصاص وتفسير الغزالي وتفسير أبي بكر بن العربي وكثير غيرها، وفيها من آراء أولئك الأئمة ووجود استنباط الحكم والأحكام ما لا غنى لطالب علم الدين عنه. فهل يجد الباحث المجدد نسخة من هذه الكتب الجليلة يمكن الوثوق بصحتها إلا بطريق المصادفة وحسن الاتفاق؟ وهل يليق بأمة تدعى أنها على دين وأن لها فيه سلفاً صالحاً أن تهجر آثار سلفها وتدع ما كتبوا طعمة للعبث وفراشاً للتراب؟ هل وقع مثل ذلك من المشتغلين باللاهوت المسيحي في زمن من الأزمان؟ إن حالة طلبة العلوم الدينية الإسلامية أصبحت مما يرثى له في أكثر بلاد المسلمين فهم لا يقرأون من كتب الكلام إلا مختصرات مما كتب المتأخرون يتعلم أذكاهم منها ما تدل عليه عباراتها، ولا يستطيع أن يتعلم البحث في أدلتها وتصحيح مقدماتها وتبييض صحيحها من باطلها وإنما يتلقاها كأنها كتاب الله أو كلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ ما فيها بالتسليم. فإذا ناظره مناظر في بعض قضاياها وعجز عن تصحيحه قطع الجدل بقوله: هكذا قالوا. وإن لم يكن القول متفقاً عليه بل قد يكون القول مما لم يقل به سوى صاحب الكتاب الذي اشتغل به وربما كان صاحب الكتاب ممن لو رآه أحد من السلف لم يرضه تلميذاً يعي عنه ما يقول.

كاد ينقطع طلب العلوم الدينية في سوريا والحجاز وتونس والجزائر وقلَّ جداً في المغرب الأقصى. ولم يبق الاهتمام به إلا في بعض الصحارى وذلك إما لصعوبة طرق التعليم واقتضائها الزمن الطويل. وحاجات الناس مانعة لهم من إفناء أعمارهم في عمل لا يسد في

حاجتهم. وإما لتفضيل الآباء تربية أبنائهم على الطرق الحديثة في أوروبا أو في المدارس الأخرى وليس فيها من الدين شيء وإن كان فيها شيء منه فهو مما لا يُعدّ تعليمًا دينيًا ينظر إليه. وإما للفتور والجمود، الذى نشأ عن التقليد والجمود. وبذلك تجد المسلمين قد تولاهم الجهل بدينهم. وأخذتهم البدع من جميع جوانبهم. وانقطعت الصلة الحقيقية بينهم وبين سلفهم. حتى لو عرض على الجمهور الأعظم منهم ما اتفق عليه السلف من الحكام لأنكروه واستغربوه وعدّوه بدعة في الدين وصح فيهم ما قال عمر الخيام في بعض أشعاره الفارسية مخاطبًا للنبي عليه الصلاة والسلام: (إن الذين جاءوا بعدك زينوا لك دينك ووشّوه وزركشوه حتى لو رأيته أنت لأنكرته). فهذا الصنف من المسلمين وهو معظمهم قد أنكر دينه الحق وعاداه ونقم على أهله القائمين بخدمته. وإنما اصطفى لاعتقاده بعض أفراد لم يعرف عن السلف اختصاصهم بالثقة ولم يسمح الدين باختصاصهم بالتقليد. فإذا وقع عن هذا الصنف ما فيه أدنى للعلم وأهله فهل يعدّ ذلك واقعًا من دين الإسلام دين محمد صلى الله عليه وسلم. دين القرآن. دين السنة الثابتة. دين الخلفاء الراشدين ومن تبعهم من السلف الأولين؟



متابعة العلم للإسلام ومباينته لسواه

الحق أقول والحس يؤيدنى: ما عادوا العلم ولا العلم عاداهم إلا من يوم انحرفهم عن دينهم وأخذهم في الصد عن علمه فكلما بعد عنهم

علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرّموا ثمار العقل وكانوا كلما توسّعوا فى العلوم الدينية ، توسّعوا فى العلوم الكونية ، وضربوا الزمان بسوط من العرّة. أما غيرهم فكلما اتصلوا بالدين وجدّوا فى المحافظة عليه أنكرهم العلم وتجنّبهم واکفّهم وجهه لِقائهم. وكلما بعدوا من الدين سألهم العلم وبش فى وجوههم ولذلك يصرّحون بأن العلم من ثمار العقل والعقل لا يصح أن يكون له فى الدين عمل ، ولا أن يظهر منه فيه أثر. والدين من وجدانات القلب ولا علاقة بين ما يجد القلب وما يكسب العقل فالفضل تام بين العقل والدين. ولا سبيل إلى الجمع بينهما. سامحهم الله فيما يسمونه تسامحاً مع العلم. وهم يصرّحون بأنه عدوه الذى يستحيل أن يكون بينه وبينه سلم.

هل عرفت السبب فى اضطهاد المسلمين للعلم؟ أقول اضطهاد ولا أريد به ما كان عند الأمم المسيحية من الاشتداد فى إبادة أهله ، والتنكيل بهم واختراع ضروب التعذيب والتفنن فى صنع آلات الهلاك مع الأخذ بالشبهة. والاكتفاء فى الإعدام بمجرد التهمة. فإن ذلك لم يقع عند المسلمين لا أيام علمهم، ولا فى أزمنة جهلهم. ولكن أريد من الاضطهاد الإعراض عن العلم ورمى الألفاظ السخيفة فى وجود أهله وقذفهم بشيء من الشتائم مع الابتعاد عنهم. لا ريب أنك قد أيقنت بأن السبب فى هذا الذى يسميه الأديب اضطهاداً إنما هو جهلهم بدينهم. فالدواء الذى ينجح فى شفائهم من الداء لا يكون إلا ردّهم إلى العلم بدينهم والتبصر فيه للوقوف على أسرارده والوصول إلى حقيقة ما يدعوا إليه. كان الدين واسطة التعارف بينهم وبين العلم فلما ذهبت الواسطة تناكرت النفوس وتبدل الأنس وحشة.

الدعاة في الإسلام

فهل قام بينهم دعاة للعلم حقيقيون ، أو دعاة لأصل الدين عارفون ، ثم استعصت قلوب المسلمين عليهم ، وجمحت نفوسهم عن الانقياد لهم؟ وهل كثر أولئك الدعاة في أطراف بلاد المسلمين كثرتهم في أوروبا من أواسط القرن السابع عشر من التاريخ المسيحي إلى أن ظهرت قوة العلم في أوائل القرن السابع عشر وفيما بعد ذلك؟ لا . إنما رأينا من الصادقين أفراداً يظهرون متفرقين في عصور مختلفة ربما لا يجتمع أربعة منهم فما يزيد في قرن واحد ويأخذون في العمل ولما وجَّهوا إليه ، ثم لا يكادون ينطقون ببعض الكلم فيحس الناس بهم فيأخذ المستعد أهبطه لمفارقة ما كان عليه واتباعهم حتى تشعر السياسة (نعوذ بالله منها) بما عسى يكون من أمرهم فتخمد أنفاسهم . قبل أن يبلغوا من قلب واحد ما أرادوا من غرس أفكارهم ، فينطفئ النور ، ويذلَّهم الديُّجور . فهل يعدُّ الأديب هذه الضربات من أيدي أرباب السياسة اضطهاداً للعلم لأجل حماية الدين؟ أنزَّه كل أديب عن أن يظن ذلك وإنما هي صدمات تقع على الدين لا تختلف عن أمثالها مما يصيبه منهم مباشرة فلا تعدُّ حجة على الدين في نظر المنصف .



المقلد دون المقلد

ربما يقول القائل : إن كان المسلمون قد أخذوا الجمود في التقليد والنفرة من العلم والاعتقاد بالعداوة بين الدنيا والآخرة وبين العقل والدين

وما أشبه ذلك مما هم فيه وورثوه عن الأمم السابقة عليهم خصوصاً أقرب الملل إليهم، فما بالهم لم يقلدوا المسيحيين فى الحرص على نشر دينهم والتوسع فى علومه مذيلاً بما أخذوه عنهم، ولم يقسموا أنفسهم قسمين كما قسم المسيحيون إخوانهم قسمين: قسمًا ينقطع إلى الآخرة فى الأديار والصوامع، وقسمًا يشتغل بالدنيا ليقبض نفسه ويقيت أهل القسم الأول ويحمى نفسه ويحميهم من العدوان؟ وما لك ترى المسلمين خملوا وارتخت أعصابهم وسئموا النظر فى علوم دينهم كما ذكرت، ثم صاروا أبعد الناس عن معرفة الطرق لتحصيل الغنى والثروة، والقبض على ناصية القوة وصولجان العزة، وطرحوا أنفسهم فى تيار من القدر كما يقولون، يجرى بهم إلى حيث لا يعلمون؟ ثم هم مع ذلك أحرص الناس على حياة، وأشدهم لهفًا على الحطام، فلا ترى الجمهور منهم فى شيء للدين ولا للدنيا فما هذا التناقض؟

فأقول له: إنك قد نسيت أن المقلد إنما ينظر من عمل المقلد إلى ظاهره ولا يدرى سره ولا ما بنى عليه. فهو يعمل على غير نظام، ويأخذ الأمر لا على قاعدة، ولذلك سقط المسلمون فى شرٍّ مما كان عليه مقلدوهم لا سيما أنهم قد خلطوا فى التقليد وأضافوا إلى دينهم ما لا يمكن أن يتفق معه، فصاروا فى مثل حال المتخبط الذى تنازعُه عدة قوى يذهب مع كل منها آنًا ثم ينتهى أمره بعد الخيبة بالتعب الشديد فيستلقى إلى أن يستريح فينهض إلى العمل على هدى أو يموت. لما كان المسلمون علماء كانت لهم عينان: عين تنظر إلى الدنيا، والأخرى تنظر إلى الآخرة. فلما طفقوا يقلدون أغمضوا إحدى العينين، وأقذوا الأخرى

بما هو أجنبي عنهم ففقدوا المطلبين ولن يجدوها إلا بفتح ما أغمضوا
وتطهير ما أقدوا.



الإصلاح والمصلحون

للقاتل أن يقول: كيف تدعى أن دعاة العلم والدين قليل بين المسلمين
مع أننا نسمع أصواتهم تتلاقى في جو مصر وسوريا وغيرها من البلاد
في هذه الأيام. كل يقول: ديني ملتي: إسلام مسلمون: قرآن سنة:
مجد الإسلام القديم سلفه والصالحون: تعلم تعليم: كتب قديمة كتب
جديدة. وما يشاكل ذلك مما يظهر منه أن الداعين إلى العلم أو المنبهين
إلى الأخذ بأصول الدين الإسلامي كثيرون ولا ترى مع ذلك من أغلب
المسلمين إلا آذاناً صمّاً وأعيناً غُمياً وصدّاً عما يدعو إليه هؤلاء. ويمكنني
أن أقول له: إن الصادق في هؤلاء ليس بكثير عُدة، والجمهور منهم
قلما يخلص قصده، وما تجد أكثرهم إلا متجرين بهذه الكلمات لكسب
بعض دريهمات: ويظهر لك ذلك من أنهم يلفظون هذه الأسماء وقلما
يدرسون شيئاً من مدلولاتها ليقفوا على الحقيقة منه، وإنما يلقف بعضهم
عن بعض ظواهر كالزبد لا تمكث في الأرض. أما الصادقون على قلتهم
فقد بدأ بعض الناس يسمعون ما يقولون، ويطلبون الرشاد مما يعلمون،
خصوصاً في أمر الدين والجمع بينه وبين مصالح الدنيا لا سيما في بلاد
الهند وبين مسلمي روسيا. ولكن الإصلاح ليس ريحاً تهب فتمسح الأرض
من الشرق إلى الغرب في وقت قريب فانتظر.

قد يقول القائل: لم لم يكثر هؤلاء كثرتهم بين الأوروبيين فيما مضى حتى يغلبوا الظالمين من أهل السياسة ويستميلوا العادلين منهم إليهم. وينهضوا بالمسلمين من هذه الرقدة التي طال أمدها عليهم؟ ولم لا يزال أهل البصيرة منهم قليلين متفرقين يهيمسون بالقول ولا يجهررون، وليس للعلم فيهم دعاة عمليّون؟ أليس ذلك سبيلاً لمؤاخظة الإسلام. وحجة عليه؟؟ وأقول له: إن حظ المسلمين لا يصح أن يكون أسعد من حظ مقلديهم. بل المنتظر أن يكون أتعس وقد أقامت المسيحية ما يزيد على ألف سنة قبل أن يظهر فيها العلم أو تنشأ الحرية الشخصية، أو تسرى فيها الحركة العلمية، إلى ما فيه صلاح الجمعية الإنسانية. مع توالى المنبهات، وتواصل الصدمات إثر الصدمات، ولم يعض على المسلمين من يوم استحكمت فيهم البدعة وأطبقت عليهم ظلم المحدثات ودخلوا جحر الضب الذي دخله من كان قبلهم إلا أقل من ثمانمائة سنة. فلم يعض عليهم وهم في بدعهم الجديد ذلك الزمن الذي قد يكون عُمرًا لمثل هذه الحالة، ثم تقضى نحبها في آخره. وما أظن أن يمر على المسلمين مثل تلك المدة قبل أن يبلغوا من صلاح الدين والدنيا ما هم أهل له.



الفرق بين التعصبين

وعلى كل حال لا يجوز في شريعة الإنصاف أن يذكر المسلمون في جانب جمهور المسيحيين إذا ذكر الغلو في التعصب الديني فضلاً عن

أن يقال: إن المسلمين أشد إفراطاً فيه. والشاهد يدلنا على أنه قد يكون للمسلمين في التعصب ألفاظ وكلمات، ولكن الذى يكون من جمهور المسيحيين إنما هو أعمال وضربات في المعاملات. وما على طالب الحقيقة إلا أن يسيح بفكره في المستعمرات الهولندية في الشرق ومثل مملكة الترנסفال قبل سقوطها وبلاد الناتال في الجنوب. ثم يرجع إلى الجزائر وما يليها في جهة الغرب ليعلم كيف تكون الشدة في المعاملة مع غير أهل المذاهب المسيحية وكيف يبلغ التعصب من أهله حدًا تنظر إليهم فيه الإنسانية شزراً ولا تقبل لهم فيه المدنية عُذراً.

ما على الباحث إلا أن ينظر فيما يكتبه الكتاب الفرنسيون ليعلم أنهم في حيرة من أمرهم مع المسلمين. يريدون أن تكون لحكومتهم طمأنينة فيما ملكت من بلاد المسلمين ولكن حكومتهم لا تجد السبيل إليها مع ما اتخذته قاعدة لعملها وهو الشدة والإفراط في القسوة على المسلمين خاصة وخدمهم دون سواهم. وأرباب الأقلام يبحثون عن تلك الطمأنينة مع المحافظة على تلك القسوة ويأبى الله أن يعثرهم على ما يبحثون عنه. لأنهم يطلبون الجمع بين الضدين في موضوع واحد وهو محال كما يقرره فلاسفتهم.



رأى هانوتو الأخير في معاملة المسلمين

ميسيو هانوتو أطلق قلمه من سنوات أن يجرى في البحث عن طريقة حكم للمسلمين وقاعدة لمعاملتهم في البلاد التي يحكمها الفرنسيون وجاء

فى فصول مقاله بما لا يزال يذكره القراء. ثم بعد أن قتل المسألة علناً ثلاث سنين رجع إلى موضوع البحث هذه السنة بلسان غير الذى كان ينطق به ورأى غير الذى كان يصدر عنه. وإنى ذاكر ملخص ما نقلته الجرائد من خطابه الذى ألقاه فى المجمع الجغرافى فى شهر مارس من هذه السنة متعلقاً بأفريقيا، واقتصر منه على ما يتعلق بما نحن فيه وهو بالمعنى: (إن القواعد الجديدة التى يجب أن يكون عليها العمل فى أفريقيا هى مخالفة للقواعد القديمة التى كانت تجرى عليها السياسة الاستعمارية فيما مضى من الزمان. أى: قبل ساعة وقوف الخطيب لإلقاء خطابه) ثم بين هذه القواعد الجديدة التى يعامل بها المحكومون فقال: إنها الأمن والسلم ثم قال: (إننا مدينون لهم بالعدل والسلم كما أننا مدينون لهم بالتساهل الدينى، ولست أشير إلى هذا الموضوع الخطير الذى له علاقة بكل ما يثير النفس البشرية إلا إشارة خفيفة فأقول: إن التمدن الأوروبى يجد فى طريقه فى أفريقيا لا سيما فى شمالها ذلك الدين القديم العظيم الذى هو دين الإسلام، والذى هو فى هذه الجهات (شمال أفريقيا) أكثر نشاطاً منه فى غيرها. وهذا الدين يدعو إلى إله واحد ويجعل الإيمان بالتوحيد مصدرًا لكل الفضائل الذاتية والاجتماعية ويستولى على المؤمن به استيلاءً شديداً فلا يعود يقدر على التفلسف منه، فمن المفروض علينا التساهل فى هذا الشأن بل ليس التساهل بكافٍ وحده، فمن الواجب أن ندرس هذا الدين ونبذل جهدنا فى فهمه. وعلينا أن نتخذ الكلمة الإسلامية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ سورة البقرة آية ٢٥٦- شعاراً لنا لا نخرج عن حدود معناها. وأن نحترم الدين الإسلامى

ونحميه من كل طارئ سوء. ولا بأس بذكر كلمة للأمير عبد القادر الجزائري فى هذا المقام وهى: (إن أصحاب الأديان الثلاثة يشبهون ثلاثة إخوة من ثلاث أمهات).. انتهى محصل كلام هانوتو.

قبل الكلام عليه أسأل القارئ: هل سمع مثل هذه الكلمة ممن يماثل الأمير عبد القادر فى نسبه إلى صاحب الرسالة ومقامه فى أهل دينه ومكانته من سلامة العقيدة فى مذهبه؟ أو سمع ما يقرب منها ممن لا يدينه من أهل الملل الأخرى؟

ترى هانوتو يرشد أهله إلى اتخاذ سبيل جديد فى سياسة المسلمين، وهذا الجديد هو السلم والأمن والتساهل مع المسلمين فى أن يستمروا مسلمين واحترام حقوقهم وتركهم يعملون بدينهم. وعدّ هذا مبدءاً جديداً لم يسبق الجرى على مثله. وهل تجيب الحكومة الفرنسية طلبه؟ مسألة فيها نظر. فهل يليق بمنصف أن يذكر المسلم إذا ذكر التعصب ما دام فى هذا الكون مثل هذه الدرجة منه؟



سياسة الإنكليز فى التسامح

نعم نحن لا ننكر أن بين الأمم الأوروبية أمة تعرف كيف تحكم من ليس على دينها، وتعرف كيف تحترم عقائد من تسوسهم وعوائدهم. وهى الأمة الإنكليزية فهى وحدها الأمة المسيحية التى تقدر التسامح حق قدره. لا يصعب علينا أن نقول: إن منشأ ذلك أن أمراءها فى الحروب

الصليبية وقوّاد جيشها كانوا من أشد الصليبيين علاقةً بسُلطان المسلمين وأبراء جيشه. وقد امتاز الإنكليز في ذلك الزمن المظلم بدرس عقائد المسلمين وعاداتهم فحملوا من ذلك شيئاً كثيراً إلى بلادهم ولم تحجبهم غشاوة التعصب عن إِبصار ضوء الحق، وظهر أثر ذلك في أقلام كثير من كتابهم مثل ولترسكوت وشيل وغيرهما قبل أن يظهر في أقلام الكاتبيين من غير الإنكليز بأزمان طويلة. فلنا أن نقول: ولا نخشى لائئماً: "إن هذه الخلعة الشريفة - خلعة إطلاق الحرية لأهل الدين يتمتعون بأداء فرائضه مع احترام ما يحترمونه - هي من أجل الخصال ورثتها غير المسلمين عن المسلمين". وهل أجد من يأبى على القول بأن الإسلام السليم من البدع هو أستاذ الإنكليز وعنه أخذوا هذه الخلعة؟ ألا ترى أن نظامهم في ذلك يقرب من نظام المسلمين في يوم كانوا مسلمين، يكتفون من الناس بالخضوع للقوانين وأداء ما يفرض عليهم من الضرائب ثم يحفظون نظام العدل بينهم بقدر ما تسمح به السياسة لا يفرقون بين دين ودين. وهكذا كان حال المسلمين. وإن كان ذلك على قاعدة أبر وأرحم.



الخاتمة

فإن قال قائل: أليس لهذا المقال من آخر؟ أليس في طول الكلام مجلبة الملل، وترويج الكسل، قلت: إنى أوجه كلامى هذا إلى أهل النِّم إلى الفهم، وأرباب الشره إلى المعرفة، ولا أظن هؤلاء إلا طالبين ما هو أوسع من هذا المقال وأطول منه أضعافاً مضاعفة، لأن الموضوع جليل، والكلام فيه مهما كثر قليل، وأما القارئ الملول، فعقله مدخول، وعزمه مغلول، وفكره مغلول، وهو قصير الهمة فيما يقصر وفيما يطول، فلا ينظر إليه فى الخطاب، ولا يعتد به عند الحساب، ومع ذلك فأنا واقف عند هذا الحد، وأنتظر بتفصيل القول فى مسألة أمراض الإسلام وآثار البدع والمحدثات فيه، والعلل التى نشبت بالمسلمين بسببها فرصة أخرى، وقبل أن أترك القارئ أنبيه إلى أن ما أجمل فى هذه الفصول لم يقصد به الطعن فى حال أحد من الناس ولا طائفة من الطوائف كما يعرفه القارئ نفسه من لباس المعانى، وما يكسوها من الأدب والتنزه عن كل كلمة تشم منها رائحة العيب على آخر. وقد يعلم من هذه النزاهة أن هذا رأى طبخناء لنطعته بأنفسنا، وننطق منه على من تلزمتنا نفقته من أهلنا، ولم يكن يخطر ببالنا عندما أجدنا طبخنه أن نفيض منه على غيرنا، لكن إذا عشا السارى إلى ضوء نارنا، وطلب القرى منّا قاسمنا ما لدينا، وعرضنا عليه آخر من نفس الحياة، وأهنا من خلق الأناة إن شاء الله. ا هـ

تأثير هذا المقال وتقريره

يقول جامع هذا الكتاب وناشره: كتب هذا الإمام الكبير مقاله هذا في أيام معدودات، فجاء كما ترى آية من الآيات البينات؟ ولقد كان لنشره من التأثير في عالم العلم والدين ما لم نره لكلام أحد من الكاتبين. طارت به اغتباطاً قلوب المسلمين ولم يبخسه حقه فضلاء المسيحيين. ورددت صدها المنعكس عن المنار بعض الجرائد في مصر وغيرها من الأقطار. قالت جريدة (الوطن) القبطية الغراء بعدما ذكرت انتقاد الجامعة في عدد ٢٤١٣: "فهب المنار الأغر ينشر بالتوالي ردًّا مفحماً طويل الأذial لإمام تغنى كنيته عن التصريح باسمه ضمنه تنفيذ أقوال الجامعة بحجج دامغة قوية يأتي بالواحدة، ثم يعقبها بالشرح والتطويل من التاريخ تارة وأقوال العلماء أخرى ولا يزال المؤيد الأغر حتى الساعة يردد صدى هذه الفصول وإذاعة محتوياتها، والرد كما قلنا قوى الحجج متين العبارة لم يسبق فيه واضعه عالم قديم أو حديث" اهـ المراد منه.

وجاء في العدد ٣٢٤ من جريدة (المنظر المفيدة) التي تطبع في سان باولو (البرازيل) وصاحبها من فضلاء السوريين المسيحيين بعد ذكر نقد الجامعة والرد عليه: "وقد طالعنا رده في مجلة المنار ورأينا في قسم الرد الثاني أى الكلام على آية الديانتين أكثر تساهلاً للعلم حججاً حرة باعتبار رأينا أنه من المفيد أن يطلع المسيحي على رأى إمام مسلم عصرى في المسيحية فاخترنا نقله". ثم طفقت هذه الجريدة تنقل هذا

المقال فصلا فصلا . وقد رأينا في آخر عدد وصل إلينا منها مقالة وجيزة لأديب مسيحي ذكر فيها انتقاد الجامعة ثم قال : "رد علينا الرجل الإسلامي العصري بل رجل الإسلام في هذا الزمان رداً أثبت به أن الكنيسة المسيحية لم تتساهل قط للعلم والفلسفة فيستطاع أن يقال إن انتصار العلم في أوروبا دليل على كون المسيحية أكثر من الإسلامية تساهلاً ، ووعد ببيان "لم يصلنا بعد" يرجع به انتصار العلم في أوروبا إلى أسبابه الحقيقية ، فهل أصاب صاحب الجامعة في جعل تساهل المسيحية سبباً لانتصار العلم في أوروبا؟ إذا كانت الكنيسة المسيحية لم تتساهل بل اضطهدت العالم اضطهاداً . فالجواب كلا لم يصب صاحب الجامعة . ثم ذكر الكاتب أن سبب القوة والعلم في أوروبا يرجع إلى طبيعة البلاد وما عرض عليها من ضيقها بسكانها إلخ .

وكتب إلينا عالم مسيحي من سوريا ، تعتد الجامعة برأيه وتفضله على أقرانه بحق ، ما نصه : "ما أسمى ما كتب الإمام في العديدين الأخيرين من المنار . يحق لنا أن نفتخر به المسلمون والنصارى معاً . لا تحسروا الفخر به فيكم أيها المسلمون بل فاسمحوا لنا أن نشارككم كما يشارك البروتستانت الكاثوليك في انكلترا بالفخر بأحد علماء بريطانيا ، وكتب إلينا غيره بمعنى ذلك وإن كان بعضهم انتقد بعض ما كتب في النصرانية وقال إن تلك الذنوب للكنيسة لا للدين المسيحي نفسه ، ونحن المسلمين نقول بذلك نقول إن الصورة التي انقلبت إليها ديانة المسيح عليه السلام هي التي نشأ عنها ما تقدم ولو ظلت كما جاء بها المسيح لما كان شيء من ذلك .

أما صاحب الجامعة فقد خيب حسن ظننا فيه ولم يرض باعتذارنا عنه بل أصر على طعنه بالإسلام وأضاف إليه الطعن بنا وبالإمام فردنا عليه في المنار غير مرة ثم مرت ثلاثة أشهر بعد ذلك وهذا شهر رابع ولم

تصدر الجامعة فنعمل هل هي مصرة على الخصام، أم ثابت إلى الوفاق والوثام الذى هو أولى بها فى دار الإسلام.

ومن لطيف الاتفاق أنه بعد ما كتب هذا المقال كله ونشر الكثير منه ظهر كتاب انكليزى فيه مقالة لكاتب انكليزى اسمه "مستر كوريت" يدافع فيه عن الإسلام ويشهد بفضل فضاء قوله شاهدا لما كتب الكاتب عن تسامح الانكليز وتساهلهم.

ونختتم هذا التفريظ بأبيات من قصيدة لأحمد أفندى الكاشف الشاعر المشهور بالإجادة يقرظ بها المقال مخاطبا كاتبه وهى:

سلاما حجة الإسلام فينا	ورضواناً رجاء المسلمينا
عنيت بما كتبت فكان وحيا	يؤيد وحي ملهمك المبينا
فلم تترك لمتهم مكانا	يرى فيه المزاعم والظنونا
فما بطل يخوض الحرب فردا	فما يدعو بأخر مستعينا
جهادا فى سبيل الله يفدى	بمهجته المواطن أن تهونا
بأبقى منك آثارا وذكرا	وقدرا فى قلوب العالمينا
وكان يراعك المنصور سيفا	وكان كتابك الدرع الحصينا
ملكته به معاقل عاليا	نبت عنها سيوف الفاتحينا
وماضى الضلال الخلق حتى	نفعتهم وأوضحت اليقينا
فرققا بالمكابى قد كفاه	ودعه فى تأمله عساه
مجادلة وأوشك أن يدينا	يجيئك باعتراف المهدينا
فرققا بالمكابى قد كفاه	مجادلة وأوشك أن يدينا
ودعه فى تأمله عساه	يجيئك باعتراف المهدينا

أحمد الكاشف
بالقرشية